فضائلُ .. في ذكر الموت

إن الحديث عن الموت شديد وقعه، ثقيل على النفس ذكره.

ولذلك ترى الكثير من الناس يكره الموت .. أو حتى الخوض في سيرته،- وهذا مخالف للتوجيه النبوي: (أكثروا من ذكر هادم اللذات)-، لأنه بطبيعته يحب الحياة والتزوّد منها!

والسبب -أيضاً-.. لدى غالبية أولئك - كما سيأتي- .. أن طول الأمل يُبعد الإنسان عن الاستعداد ليوم الرحيل، يقول الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران:١٨٥].

ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون:٩-١٠].

عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ سُئل: أيّ المؤمنين أكيس[١]؟ قال (أكثرهم للموت ذكراً)[٢].

و... يشحذ الفطنة بقوله: {الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله الأماني}[٣].

- يا خائضاً بحر الأماني هداك الله، .. ما هذا التواني-

---

(١) أي : ذاك المتحكّم بنفسه، حتى يُبلّغها الدرجات العُلى.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٥٨٣/٤ .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ١٢٥/١ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: {أكثروا ذكر هادم اللذات ومفرق الجماعات، فإنه ما ذكره أحد في ضيقٍ من العيش.. إلا وسّعه عليه، ولا في سعة. إلا ضيّقها عليه، وأحسنهم لما بعده استعداداً أولئك هم الأكياس، ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة}[1].

وعن أنس رضي الله عنه قال: خط النبي ﷺ، خطوطاً فقال: { هذا الإنسان، وهذا أجله، فبينما هو كذلك إذ جاء الخط الأقرب} رواه البخاري.

.. كما أن الغفلة عن ذكر الموت تُورث الإنسان طول الأمل،.. والتمادي في الرجعة عن التلذذ.. ولو بالملهيات من الشهوات – إن عُصم من المعاصي-.

.. وعلّةُ ذلك – والله أعلم – ثلاثٌ:

أحدها: (حب الدنيا)، فإن الإنسان إذا ركن إلى الحياة الدنيا وشهواتها.. ثقل على قلبه مفارقتها، وامتنع قلبه عن التفكير في الموت، وعندها ينشغل بالأماني الباطلة، فيمني نفسه بما يوافق هواه من البقاء في الدنيا وما يحتاج فيها من مال ومسكن وأصدقاء، فينصرف قلبه سادراً.. أو عاكفاً على هذه الفكرة، لاهياً عن ذكر الموت، أو تصوّر قربه، وصار يسوّف لنفسه التوبة والعودة إلى الله تعالى، ويؤخّرها يوماً بعد يوم.. إلى أن تخطفه (المنية)- وهو خائض في جمع ما يذهب عنه.. ويدعه!-، وذاك.. بوقت لا يحسب له حسابه فيكثر ندمه، وتطول حسرته، – ولا ساعة مندم-!.

---

(١) ذكره الهيثمي في (مجمع الزوائد ٣٠٨/١٠)، وعزاه للطبراني.

قـــيل للحسن: يا أبا سعيد: كيف نصنع؟ نجالس أقواماً يخوفونا حتى تكاد قلوبنا تطير، فقال: (والله إنك إن تخالط أقوماً يخوفونك حتى يدركك أمنٌ، خيرٌ من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى يدركك الخوف).

وقال (الدقاق): من أكثر من ذكر الموت أُكرم بثلاثة أشياء.. تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة، ومن نسي الموت عوقب بثلاثة أشياء، تسويف التوبة، وترك الرضا بالكفاف، والتكاسل في العبادة.

-.. ولقـــد ورد أن صـــياح أهـــل الـــنار يقولون: وآحسرتاه من (سوف)..!

دع عنك تسويف الأماني فإنها خوادع لا يُصغي إليهنّ حازمُ[1]-

قيل لرجلٍ من عبد القيس: أوصي؟ قال (إحذر من سوف)[2]

وأصـــل هـــذه الأماني[3] كلها: حب الدنيا والأنس بها والغفلة عن موعظـــة جبريل عليه السلام للنبي ﷺ بقوله: (عش ما شئت.. فإنك ميت، واعمل ما شئت.. فإنك مجزي به، وأحبب من شئت.. فإنك مفارقه)[4].

وثانـــيها: (الجهـــل)، وأصله أن الإنسان يعتمد على شبابه ويستبعد (الموت) مع الشباب، ولم يعلم أن الموت في الشباب أكثر منه في المسنين!

ولم يدر أن الموت يأتي فجأة وإن استبعد ذلك، فإن المرض .. قد يأتي به!..، لكن:

غـــرورٌ يمنينا الحياة ورجوها وجـــنات الأمـــاني.. بلاقعُ[5]

---

(١) من حكم (محمد بن عثيمين).

(٢) كتاب (اقتضاء العلم والعمل) – الخطيب البغدادي – ص٢٢٥

(٣) – قيل/ يظل الأمل يحثنا على السير حتى ينتهي بنا إلى القبر !!-

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/٣٦٠.

(٥) أي: خاوية.. أو خاليه.

وثالـــثها: (الغفلـــة)، وهي.. سكرة الدنيا[1] التي تطمعه حتى يلقى حتفه، وصدق الله: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الروم/٥٥]! —

– الناس في غفلةٍ والموت يوقظهم[2] وما يفيقون، حتى ينفد العمرُ–

إذ لـــو تفكّـــر وأدرك أن المـــوت ليس له وقت، ولا هو مُقيّدُ بسنٍ مخصوص–من صغير أو شاب.. أو كهل– لعظم ذلك عنده، واستعدّ للموت.

– يـــا مـــن بدنـــياه اشتغل وغـــرّه طـــول الأمـــل
ولم يـــــزل في غفلـــــة حـــتى دنـــا مـــنه الأجـــل
المـــــوت يـــــأتي بغـــــتةً والقـــبر صـــندوق العمل–

.. وما ذكرنا/ قُصد به استحضارُ الموت والاستعداد[3] ليوم الرحيل بالعمل والجد لذلك .

وحتى لا يشط الأمر[4] بالقاريء: لم نعنِ به تمنيه أو إيثاره على الحياة[5] –التي هي مزرعة الآخرة ـــ وقد قال ﷺ:{خيركم من طال عمره وحسن عمله}،

---

(١) ومن العلاج.. لهذا في تخفيف قسوة القلب– أنظر ما يأتي (ص١١٨)–

(٢) وقد ورد في الأثر : (الناس نائمون، فإذا ماتوا.. صحوا!).

(٣) .. أنظر ما تقدم ص٧٨.

(٤) ..وأنظر ما تقدم ص٢٩.

(٥) .. فإن هذا خلاف الغريزة التي أودعها الله بالخلق فـــ/ الإنسان كائن (حي) لديه غرائز، من أجلّها عنده غريزة (البقاء) والخوف من الموت، وتحاشي أسبابه.. ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ ، إذاً هي غريزة فطرية أودعها الله به كيما يعمر الكون، ويحقق من قبل.. أسباب وجوده فيها– من عباده، وإستخلاف، وإعمار/ انظر ما تقدم هامش (٣) ص٢٥–

كما وعد المولى سبحانه أهل (العمل الصالح) بـــ : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل/٩٧] -

وهنا تعليق (أحببت الإتكاء عليه) للعلامة عبد الرحمن السعدي- رحمه الله- بقوله[١]:

" فـــإن راحة القلب وسروره وزوال همومه وغمومه، هو المطلب لكل أحد، وبـــه تحصـــل الحياة الطيبة، ويتم السرور والابتهاج، ولذلك أسباب دينية، وأســـباب طبيعية، وأسباب عملية، ولا يمكن اجتماعها كلها إلا للمؤمنين، وأمـــا من سواهم.. فإنها وإن حصلت لهم من وجه وسبب يجاهد عقلاؤهم عليه، فاتتهم من وجوه أنفع وأثبت وأحسن حالاً ومالاً"..

.. وذاك طلباً للأنس في الحياة الذي تدع به طلب – أو تمني - الموت!

وإن كـــان البعض سلك هذا.. حين رآبه من الدنيا وهمها وغمها ، ما دعاه لأخذ هذا المنحى -كما قال إسماعيل صبري :

إن سئمت الحياة فارجع على الأرض تنـــم آمنـــا من الأوصـــاب

تلـــك أم أحنى عليك مـــــن الأم.. الـــتي خلَّفتـــك للأتعـــاب

وكذا أحد حالات (المتنبي) بقوله :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا

أو في قول (حافظ إبراهيم) حال جمعٍ من همومه:

---

(١) .. في: (كتيب) المجلة العربية عدد ٩٢ ص٧-

حنّ جنباي إلى برد الثرى حيث أنسي من عدوٍّ وحبيب

ويقول من اتبع نمطهم، واستحسن مقصدهم .. (حمد الحجي):

يا (حياتي) ما الذي فيك يُرى! يُبهج النفس، ويُغري بالبقاء؟-

فذاك شاذ[1]، ومردود على من التجاء إليه!

فإن كان لا بدَّ لضرَّاء مسّته، أو همٌ أخذ بـ (ناصيته) فلا يفيض بهذا حتى يبلغ به مبلغه ، و ليتخذ من تنبيهه ﷺ حين وصفها أنها :{ سجن المؤمن وجنة الكافر } -رواه أحمد- قطب رحا تفكيره.. فيها.

ملحظ/ لا ينبغي أن يُلقي المرء نصح الزاهد والعَرض عن الدنيا حتى يُذيب وقعها (المعتاد) من صفيح حياته..، فلا يجده ومكانتها (الحقيقية) توارى خلف الفحوى في التزهيد بها، فتتحول عملية سلّها – أي الذات - من الطمع والجشع إلى بؤرة .. قرب القبر !، فقط ينتظر أو يستنجد صائح الموت كيما يناديه- أو يخلّصه![2]-

وهذا عدى أنه خلاف السبب الثاني من الخلق لـ (إستعمار الأرض وعمارتها) بناءً وذُريّة.. وتكاثر وجمع، وزينة – كما تقدم - ، قال عمران بن حطان:

أرى أشقياء الناس لا يسئمونها وهم فيها.. عُراةٌ.. وجوّع
أراها.. وإن كانت تسرُّ، فإنها سحابة صيف عن قليل تقشّع

---

(١) والشاذ (لا حكم له)..، وللعقاد تعليل حسنٌ في هذا: (وجود الشاذ دليلٌ على صحة القاعدة).

(٢) و- غالب- الناس في هذا على حالين، حال من ركن إليها بقضّها وقضيضها وأخذت منه كل جهده وطاقته، وعدّها كأنه خالداً فيها ، وآخرون.. زهدوا فيها.. حتى بلغ بأحد غلاة الزهاد إلى أن يفقأ أحد عينيه.. قائلاً (إسراف أن أنظر إلى هذه الدنيه بعينين اثنتين)!! – وهذا من الحمق، وقد أمتنّ الوهاب على خلقه بـ: (أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ *..﴾ الخ الآيات-

أما المتنبي .. فله تفننه في هذا العبير :

ولذيذ الحياة أنفس في النفس ... مـــن أن يُمـــلاّ وأحـــلى

وإذا الشـــيخ قـــال أُفٍّ فما ... ملّ الحياة..، ولكن الشيب ملا

.. وقال أبو القاسم الشابي تأييداً – أو موافقاً! في قصيدته " الاعتراف" بعد موت أبيه – :

ما كنت أحسب بعد موتك يا أبي: ... –ومشـــاعري عمياء بالأحزان–

أني ســـأظمأ للحـــياة، واحتسي ... مـــن نهـــرها المتوهّج النشوان

وأعـــود للدنـــيا بقلـــبٍ خافقٍ ... للحـــب، والأفراح، والألحان

.. وإذا التشاؤم بالحياة ورفضها ... ضـــربٌ من البهتان.. والهذيان

دخل الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك – رحمه الله – المسجد فرأى شيخاً هـــد كيانه الزمن، وأحنى ظهره الكبر، فاقترب منه وقال له مداعباً: ألا تؤثر المـــوت يا شيخ؟ قال الرجل. لا يا أمير المؤمنين، لقد ذهب الشباب وشرِّه، وأتى الكبر وخيره، وأنا إذا قمت الآن حمدت الله وإذا قعدت ذكرته، وأحب أن تدوم لي هاتان الخلتان.

– على ألاّ يبلغ بصاحبه حد الزهو.. والتغرر بها، أو إيثارها على الأُخرى–

وقـــد حذر ديننا المؤمن، والمسلِّم بما كتب الله عليه– من تمني الموت إذا نـــزل به ضر – قال ﷺ: {لا يتمنين أحدكم الموت لضرٍّ أصابه، فإن كان لا بد فاعلاً فليقل: اللهم أحييني ما كانت الحياة خيراً لي }[1].

---

(١) أخرجه البخاري ٥/٢١٤٦ .

openkandil.com

وجدير بنا التذكير (لما أشار إليه العلماء)، وهو:

أن هذا – أي: مذموم.. إذا تمنى الموت لضرٍّ ونحوه، لكن تمنِّ الموت خوفاً على دينه لفساد الزمان، ونحو ذلك.. لم يُكره، هذا بالنسبة لمن حضرته الوفاة.

بعدها../ وإليك– بشرى– الحديث الذي ورد عنه ﷺ:

{ إن الحمى[1] حظ المؤمن من النار }.

– وقد قال الشاعر :

رب يـــوم هـــواؤه يـــتلظى فـــيحاكي فـــؤاد صـــبٍّ متيّم

قلت إذ خدّ[2] حرّهُ.. حر وجهي: (ربنا اصرف عنّا عذاب جهنم)–

.. قال أحد الوعاظ: (البرد نفحة من زمهرير جهنم ، والحر نفحة من نار جهنم) –

.. فـــيما حمد الشرع من زاد عمره في الطاعة، كما في الحديث الذي تقـــدم: { خيركم من طال عمره وحسن عمله}، وقد نهر ﷺ ، حين سمع مـــن قال عمن تُوفي قبله.. (أنه: وُقي الفتن والمحن)، بـــ تعليلٍ.. أن: {كم رمضان بعدهم صمتم.. وكم صلاة بعدهم صليتم..} –الحديث–

في الوقت الذي ذم فيه من طال عمره– حتى هرم– وزاد همه.. وذلّه[3]، فاستعاذ ﷺ من ذلك بـــ: { اللهم إني أعوذ بك أن أُرد إلى أرذّل العمر..}.

---

(١) – أي.. في الدنـــيا–: و هي (سخونة تصيب كافة الجسم بالحرارة والوهن العام)، وقيل : (هي المكفّرة: لأنها تصيب جميع المفاصل في الإنسان).

(٢) .. أي جعل فيه خدوداً، –تشقق– وهي: طريق الماء إلى النهر.

(٣) .. بل وعدّها من العذاب العاجل – في الدنيا–

وللتوفيق بينهما: أن هناك من يتوفى و لم يُمتّع بعمره- الوسطي (أعمار أمـــتي بين الستين والسبعين)-، وبين من يبلغ حتى يعود كالطفل من الخرف - عياذاً بالله مولانا.. من بلوغ ذلك-

وهـــنا يعجب : فقيدنا علي الطنطاوي -رحمه الله- تعقيباً.. على ما يتداوله بعـــض الـــناس عن الميت: مات واستراح، (أن : كيف استراح وقد قامت قيامته!). .. بهذا قال الشاعر :

فلو أنّا إذا متنا تُركنا ..لكان الموت راحة كل حي

ولكنّا إذا متنا بُعثنـــا ونُسأل بعدها عن كل شي!

وصدق الله العظيم : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٥].

- من هذا .. قال الشاعر :

أما والله لو عَرف الأنام لِما خلقوا..، لما غَفَلوا وناموا!-

و.. يقول رسول الله ﷺ: {أغتنم خمساً قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك[1]، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك}[2].

وروى الترمذي قال، ﷺ: {ما من أحدٍ يموت إلا ندم، إن كان محسناً ندم أن لا يكون ازداد، وإن كان مسيئاً ندم أن لا يكون نزع}.

---

(١) كما يقول الحسن البصري : (أدركت أقواماً كانوا على أوقاتهم أشد منكم حرصاً على دراهمكم ودنانيركم).

(٢) رواه الحاكم وصححه الذهبي.

و.. يقـــول ابن القيم- رحمه الله : (إن العبد حين استقرت قدمه في هـــذه الدار فهو مسافر منها إلى ربه، ومدة سفره هي عمره، والأيام والليالي مراحل، فلا يزال يطويها حتى ينتهي السفر) [1] ثم قال:

(والناس ينقسمون إلى قسمين: منهم من يطوي سفره بما يقربه إلى دار الشقاوة، ومنهم من يقربه إلى دار السلام).

- نسير إلى الآجال في كل ساعة وأيامـــنا تطوى وهن رواحل

ترجّل [2] من الدنيا بزاد من التقى فعمـــرك أيـــامُ تُعدّ قلائل-

وجاء في (صيد الخاطر) — ص١٤٩ - :

الناس في غفلة، والموت يوقظهم [3] ومـــا يفيقون حتى ينفد العمرُ

يُشّـــيعون أهالـــيهم بجمعهـــم ويـــنظرون إلى ما فيه قد قُبروا

..ويـــرجعون إلى أحلام غفلتهم ، كـــأنهم ما رأوا شيئاً ولا نظروا

---

(١) وتمثيل (ابو ماضي) قريب من هذا..

إن الحياة (قصيدةٌ) أعمارنا أبياتها.. و الموت فيها القافية

- وقال أحد الوعاظ — وقد تكرر-: يا بن آدم إنما أنت أيام، فكل يوم يمضي، يمضي بعضك!

وقال أحد الفلاسفة: إن كنت تحب الحياة، فلا تضيع الوقت سدى !، لأن الوقت هو المادة المصنوعة منها مادة الحياة-

(٢) ترجّل الفارس أي : نزل عن فرسه- كناية عن (الوفاة) -

(٣) وقد تقدم ما ورد في الأثر: (الناس نيام، فإذا ماتوا.. صحوا).

obeikandl.com

فاللهم ارحم (منّا): أعين تُبصر، وآذانٌ تسمع وقلوب تعقل... ولا تتعظ !!

تـــذكّـــر دائـمـــاً

ذكر الموت والتفكر فيه: يجعل الإنسان دائماً على أهبّة الاستعداد لملاقاة ربه جـــل وعـــلا، والاستعداد -.. أو (المسارعة)- يؤدي إلى العمل.. المفضي للفوز بإذن الله، والنجاة في الآخرة.

obeikandl.com

obeikandl.com

(الاحتضار)

أ/ الاحتضار وسكرات الموت:

الاحتضار هو: بداية نزول الموت بالإنسان، يقول الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ [البقرة: من الآية١٨٠]. أي: نزل - أو ما يسمى: بسكرات الموت: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [ق: من الآية١٩].-

كذا.. قال، ﷺ: وهو يُدخل يديه في ركوة ماء ويمسح بها وجهه الشريف : { لا إله إلا الله، إن للموت سكرات} رواه البخاري.

ولما رأت فاطمة- رضي الله عنها – ما برسول الله ﷺ، من الكرب الشديد الذي يتغشاه قالت: وكرب أباه، فقال لها: {ليس على أبيك كرب بعد اليوم} رواه البخاري.

ونحن ندعو بأثره، ﷺ: {اللهم هون علينا سكرات الموت إذا حلّت، وثبتنا إذا وقعت، حين يثقل اللسان وأغمضت العينان ومدت الأكفان، فاللهم برحمتك أزلفنا إلى الجنان}.

ولو لم يكن بين يدي ابن آدم (المسكين) كربٌ ولا حول ولا عذاب سوى سكرات الموت،.. لكان جديراً بأن ينتقص عليه عيشه، ويتكدر عليه سروره، ويفارقه سهوه وغفلته، وحقيقياً بأن يطول فيه فكره، ويعظم له استعداده، لا سيما وأنه في كل لحظة بصدد أن يباغته ملك الموت بـ: (سكراته) وهو عنه غافل.

وإن (النزع)[1] أشد من ضرب السيف، وإنما يصبح المضروب ويستغيث لبقاء قوّته، وأما المحتضر عند احتضاره.. فإنه ينقطع صوته من شدة ألمه، لأن الألم قد بالغ فيه وغلب على قلبه وعلى جوارحه، وضعف منه، فلم

---

(١) النزع: أي نزوع الروح من الجسد – وإخراجها منه-.

يبق فيه قوةٌ لاستغاثة، ويودُّ لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح، وتجذب الروح من جميع العروق، ويموت كل عضو من أعضائه بالتدريج، وتجذب الروح من جميع العروق، ويموت كل عضو من أعضائه بالتدريج، فتبرد أولاً قدماه، ثم ساقاه، ثم فخذاه، حتى تبلغ الحلقوم، فعند ذلك ينقطع نظره من الدنيا وأهلها، ويغلق دونه باب التوبة، قال ﷺ: {إن الله يقبل التوبة من العبد ما لم يغرغر}[1].

ب/ ما يحدث عند الاحتضار وقبض الروح ؟

يحدث أمور وحقائق هامة، منها:

عندما يتجرّع الإنسان سكرات الموت، أو يرتشف الجرعة الأولى من كأسه.. يتمنى أن لو عاد إلى الدنيا ويستزيد من الطاعات وفعل الخيرات[2]، ولكن هيهات هيهات، -.. وقد سبق السيف العذل، ولا ساعة مندم[3]!-، وقد غدا أمر الله مقضياً، وأُبرم الحكم، وارتفعت الأقلام، وجفّت الصحف ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [المؤمنون:٩٩].

إن آلام النزع شديدة عظيمة، وقد عانى النبي ﷺ - وهو سيد الخلق وحبيب الحق- من ألآمه وسكراته، يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (دخلت على رسول الله ﷺ في مرضه الذي توفي فيه، فمسسته وهو يوعك وعكاً شديداً..)[4]. فهذا الصحابي يبين لنا أن النبي - على عِظم قدره- قد تجرّع سكرات الموت، وعانى من شدته[5]، ولهولها.. لم يجد نبي الله

---

(١) أخرجه الترمذي ٣٥٣٧ .

(٢) أنظر ما تقدم – في ص ٩٧-.

(٣) وانظر ما يأتي-١٥٦ هـ (١)-

(٤) أخرجه البخاري ٥٦٤٨ .

(٥) كما تقدم – الصفحة السابقة -

يعقــوب علــيه السلام دعاءً أعظم وأغلى للذي بشّره بولده يوسف عليه السلام إلا أن قال لهذا البشير: (هوّن الله عليك سكرات الموت).

وأبلــغ وصف - بعد كتاب الله وسنّة نبيه - عن (الإحتضار) ما قاله الصحابي الجليل -..وداهية العرب — (عمرو بن العاص) رضي لله عنه، عندما سأله ولده عبد الله: يا أبتاه، إنك لتقول: يا ليتني ألقى رجلاً عاقلاً لبيباً عند نزول الموت حتى يصف لي ما يجد، وأنت ذلك الرجل، فقال:

(يا بني، كأن جنبي في تخت، وكأني أتنفس من سم إبرة، وكأن غصن شوك يجذب من قدمي إلى هامتي)، .. ثم وإن هذه السكرات ليخففها الله عن عــبادة المؤمــنين حقــاً، والمسلمين صدقاً، رحمة بهم، وقد وعدها بالذات للشهداء، كما روى الترمذي —رحمه الله- أن النبي ﷺ قال:

{الشهيد لا يجد ألم القتل إلا كما يجد أحدكم ألم القرصة}.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يخفف عنا وعن كل غالٍ علينا من إخواننا والمســلمين، سكرات الموت، إنه غفور حليم، وبعباده رؤوف رحيم، والعفو منه مأمول .. فهو أكرم الأكرمين.

.. إن مــا يحصــل مــع المحتضــر مــن أهوال وآلام قد حجبه الله رأفة ورحمة بنا معاشر الأحياء عن أعيننا، ولو أبصرناه.. ما تمتعنا بالحياة، كما قــال تعالى: ﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ* وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة:٨٣-٨٥].

فينبغي علينا كما أن الله سبحانه وتعالى رأف بنا ورحمنا[1]- بحجبه عـــنا- أن نستعد له ولأهوال بفعل الأسباب، من ذاك قول (ابن عبد القوي) -رحمه الله-:

وحافـــظ على درس القرآن، فإنه يُـــلين قلباً قاسيـــاً مثل الجلمد[2]

وقد حذر الله بـــ ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [الزمر:٢٢].

مر (الحسن البصري برجلٍ يضحك، فقال : يا أبن أخي.. هل جزت الصراط؟ فقال الرجل: لا، قال: فهل علمت أ.. إلى الجنة تصير أم إلى النار؟ قـــال: لا، قال: ففيم الضحك[3]؟! عافك الله والأمر هول) فما رُئي الرجل ضاحكاً حتى مات.

وقال عبدالله بن المبارك – رحمه الله - :

رأيت الذنوب تُميت القلـــوب وقد يورث الذُّل إدمانُهـــــا[4]

وترك الذنوب حياة القلوب وخـــيرٌ لنفســـك عصيانهـــا

- .. الـــلهم أمتـــنا عـــلى الإيمـــان واختم لنا بخاتمة الحسنى يا كريم ويا منَّان.-

---

(١) وكذا حديث (لولا أن لا تدافنوا !، لطلبت من الله أن يسمعكم بكاء من في القبور)-.. أو كما ورد-.

(٢) الجلمد: الصخر.

(٣) .. من قوله ﷺ {لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً.. الخ}.

(٤) .. بل هي-كما قيل- كالماء المالح/ كلما شربت ضمئت-

و.. قـــد تقـــدّم ما روى البخاري قوله ﷺ: {من أحب لقاء الله.. أحـــب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله.. كره الله لقاءه}. فقالت بعض أزواج النبي ﷺ إنّا نكره الموت، فهل هذا أننا نكره لقاء الله ؟ فقال ﷺ:

{لـــيس ذاك، ولكـــن المؤمـــن إذا حضره الموت.. بُشِّر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحبَّ لقاء الله، وأحب الله لقاءه، وإن الكافـــر إذا حُضر.. بُشِّر بعذاب الله وعقوبته فليس شيء أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء الله وكره الله لقاءه }.

ج/ وصف قبض الروح :

إن نـــزع الـــروح مؤلم وشديد وعظيم، ولكن العناية والرحمة الإلهية تتولّى – بإذن الله – عباد الله المؤمنين.

فـــــ(المؤمن)- وكما يُبشّرنا الحديث الذي رواه (البراء بن عازب) رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال :

{إن العـــبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة.. نـــزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وخيوط من خيوط الجنة، فيقعدون منه مد البصر، ثم يجـــيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فيِّ السقاء، فـــيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجرت عـــلى وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة.. إلا

قـــالوا: ما هذه الروح الطيبة ؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونها بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح له، فيشيَّعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى تنتهي به إلى الســـماء الســـابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعـــيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أُعيدهم ومنها أُخرجهم تارةً أخرى.. }[1].

أمـــا (الكافر)- عياذاً بالله-: فإن روحه تُقبض بطريقة شديدة، ولا أبلغ من وصف قبضها إلا -تتمة الحديث السابق- في قوله ﷺ:

{.. وإن العبد الكافر - وفي رواية الفاجر - إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة أخرجي إلى سخط من الله وغضب، فتفرَّق روحه في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود[2] من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها.. لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريحٍ وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة.. إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقـــبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى يُنتهى به إلى السماء الدنيا، فيستفتح له.. فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ٤/٢٨٧ .

(٢) السفود: حديدة ذات شعب معقوفة - .. أو معطوفة-

وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ[1] الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [لأعراف: من الآية٤٠] فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحاً، ثم قرأ ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: من الآية٣١] }.

.. فانظر يا أخي المسلم وقارن واختر لنفسك كيف تريد أن تخرج روحك، وكيف تريد أن تكون خاتمتك، اللهم ارزقنا حسن الخاتمة.. آمين.

فـ../ المؤمن تبشره الملائكة عند موته، كما يقول الله تعالى: ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء/١٠٣] ويفرح بلقاء ربه.

وقال سبحانه - في البشائر-: ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً﴾ [مريم/ ٦٣].

وأما الكافر - والعياذ بالله-/ فلا يطيب له هذا المقام، وهو من الحسرة والندامة على ما فرّط في جنب الله في حالة يُرثى لها، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال/٥٠-٥١].

أي إن : كان العبد من أهل الجنة رأى مقعده فيها ورأى مقعده في النار إن كان عمل بعمل أهل النار! فيزداد سروره إذا أبصر ذلك، قال رسول الله ﷺ : { فيقال: انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة} رواه البخاري.

---

(١) هذا.. من باب تعليق الشيء بالمحال- فكما أنه محال دخول الجمل في سم الخياط، فكذلك المكذبون بآيات الله محال دخولهم الجنة- ص٢٨٤ تفسير السعدي.

وأما المرتاب والمنافق فيزداد غمه وحزنه إذا أبصر مقعده في الجنة لو كان عمل بعمل أهل الجنة!

د/ أين تستقر الروح بعد الموت:

إن الأرواح إذا تخلصت – خرجت-من هذه الأبدان، صار لها حياة تختلف عما كانت عليه- إن كانت سعيدة أو شقية - ولكن أين مكان هذه الأرواح؟

و.. لعلنا نأنس بقول العلامة (ابن القيم) الجوزية في كتابه "الروح"، قال رحمه الله ما نصّه:

" الأرواح متفاوتة في مستقرها في البرزخ أعظم تفاوت:

فمنها.. أرواحٌ في عليين، وفي الملأ الأعلى، وهي أرواح الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وهم متفاوتون في منازلهم، كما رآهم النبي ﷺ (ليلة الإسراء).

ومنها.. أرواحٌ في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت وهي أرواح الشهداء، يقول النبي ﷺ: {أرواح الشهداء في جوف طيور خضر تسرح في الجنة، تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش}[1].

ومنها.. أرواح تبقى محبوسة في الأرض لا ترقى إلى الملأ الأعلى، وهي المتعلقة بالدنيا ومحبتها والأنس بها.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٥/٢٦٤ .

ومـــنها.. أرواح مـــع النسيم الطيب وهي أرواح أصحاب الأعمال الطيبة.

ومنها.. أرواح تكون في تنُّور في جهنم يسمى: تنُّور الزناة.

ومنها.. أرواح تسبح في نهر الدم تلتقم الحجارة" أ.هـــ.

وهكذا.. نجد أن مكان الروح بعد مفارقتها للجسد مستقرة في المكان الذي كانت تتعلق به في الدنيا.

فـــــ.. اللهم/ أجعل قلوبنا وأرواحنا متعلقة بمحبّتك، وأجعل حبك وحب نبيك المصطفى ﷺ أحب إلينا من الماء البارد على الظمأ.

هـ/ الفريقين :

قـــال تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لاَّ يَسْتَوُونَ * أَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلاً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * وَأَمَّـــا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَاهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوۤاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ *﴾ [السجدة: ١٨-٢٠].

و.. هما حال أهل (القبور) - عند السؤال -، فريق (المؤمنين)، الذين قال فيهم رسول الله ﷺ : {..تُعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : مَن ربّك؟!

فيقول : ربي الله.

فيقولان له : ما دينك؟!

فيقول : ديني الإسلام.

فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟!

فيقول : هو رسول الله ﷺ.

فيقولان له : وما علمك؟!

فيقول : قرأت كتاب الله، فآمنتُ به وصدَّقت.

فينادي منادٍ في السماء: أن صدق عبدي، فأفرشُوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة.

قال : فيأتيه من روحها وطيبها! ويفُسح له في قبره مدَّ بصره! قال : ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيِّب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرُّك، هذا يومك الذي كنت تُوعد! فيقول له : من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير. فيقول: أنا عملك الصالح! فيقول: ربِّ أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي } رواه أحمد وغيره.

.. وفريق (الأشقياء) .. من قال فيهم ﷺ– إتمام الحديث السابق–:

{ فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له : من ربّكُ؟!

فيقول : هاه هاه لا أدري!

فيقولان له : ما دينك؟!

فيقول : هاه هاه لا أدري!

فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟!

فيقول : هاه هاه لا أدري!

فيـــنادي مناد من السماء أن كذب فأفرشوا له من النَّار! وافتحوا له بابـــاً إلى الـــنار! فيأتيه من حرها وسمومها! ويُضيَّق عليه قبره حتى تختلف فيه أضـــلاعه! ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، مُنتن الريِّح! فيقول: أبشر بالذي يسُوؤك! هذا يومك الذي كنت تُوعدُ، فيقول : من أنت؟! فوجهك الوجه يجيء بالشَّر. فيقول: أنا عملك الخبيث!! فيقول: ربّ لا تُقم الساعة!} رواه أحمد وغيره. وفي رواية للبخاري: { ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين}.

تقريب/ .. ولنا أن نعرض إيجازاً في هذا، إن :

البشـــر درجـــات في الإحسان، ودركات في الإساءة، يقعون بين قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَن بَخِـــلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ * ﴾ [الليل/٥-١٠]- والله أعلم-

وأعظمهـــم درجـــات الرسل، يتقدمهم[1] محمد ﷺ ، ثم أُولي العزم ثم باقي الرســـل ويتـــبعهم باقي الأنبياء ثم أُولي التكريم كآل عمران، ثم يأتي الصفوة – ممن اختارهم الله- كـــ (الحواريين) حول الرسل بخاصة (صحابة) رسول الله ﷺ يـــتقدمهم الخلفاء الراشدون فالبقية من العشرة المبشرون يتبعهم باقي الصحابة رضي الله عنهم الذين أثنى عليهم المولى بـــ: ﴿ وَٱلسَّابِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ

---

١) ليعلم- تذكيراً- أن أكثر الخلق ابتلاء/ الأنبياء.. ثم الصالحين، ثم الأدنى فالأدني- كما جاء في الحديث- قال إمام الحرم المكي (د. صالح بن حميد): إن من عجائب الدهر عمومه بالنوائب، وخصوصه بالرغائب فتتوالى المصـــائب وتحـــل البلايا بعضها بما كسبت أيدي الناس وبعضها ابتلاء من الحكيم الخبير ليتذكر المتذكر ويتدبر المتدبِّر، ويراجع الناس أنفسهم لعلهم إلى ربهم يرجعون.

مِـــنَ ٱلْمُهَاجِـــرِينَ وَٱلأَنْصَارِ ﴾ ثم التابعون فتابعوهم { خير القرون قرني ثم الذين يلونهم} الحديث-ثم (أهل الذكر) [1] كالفقهاء الأربعة، وأهل الحديث والتفســـير - ﴿فَٱسْـــأَلُواْ أَهْـــلَ ٱلذِّكْرِ ﴾- وكذا ﴿ٱلرَّاسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ ﴾، وبعدهم من أهل العبادة والعلم — ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ ﴾ -، ثم باقي الناس وهم درجات ، فمنهم من هو صاحب عباده (له كرامات) أو زهـــد.. عن ملذات الدنيا، أو عطاء {خير الناس أنفعهم للناس }، حتى يأتي أخر المسلمين.. الذين -لا تستفيد منهم الأُمّة إلا بالدعاء بعضهم لبعض..

كمـــا قال العلامة أبو عبد الرحمن بن عقيل-عنهم-: (ومن خيرهم دعوات عامة المؤمنين بعضهم لبعض)..

..،وكـــذا بـــ تكثير سواد الأمة {.. أني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة }- كما في الحديث-.

ثم يأتي الصنف الثاني (غير المؤمنين) وهم دركات[2]، فأولاهم من قدّم خدمة للبشـــرية.. إذ يناله حظّه في الدنيا — لأنها هدفه الأسمى- من صيت.. وذكر وخلود وتيجان، أو (براءة اختراع[3]) وغيرها، أما في الآخرة.. ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَـــا عَمِلُـــواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً﴾، لأن الله اشترط لخير الآخرة - ﴿ فَمَـــن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ وقوله في سورة العصر : ﴿ إِلاَّ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ﴾ - أي : شرط (الإيمان) مع العمل الصالح- أمـــا الباقية من البشر فإنهم كالأنعام بل هم أضل، لماذا هم دون الأنعام، لأن الأنعـــام خُلقـــت لحكمة يسيرون بمقتضاها، أما أولئك فلأنهم أخلدوا عن ما

---

(١) كذا قال الشافعي: أشرف علوم الدين (الفقه)، وأشرف علوم الدنيا (الطب).

(٢) أدناهم، ما جاء في قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [النساء/١٤٥].

(٣) انظر ثنايا هامش (٢) ص١٦٠.

كُرِّموا به من الإنسانية المفضية إلى الإيمان برب العالمين، لكن كما قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ ٱلْجِنِ وَٱلإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَآ.. الآية﴾ [الأعراف/١٧٩] فالإسلام كرم الإنسان بعلمه ونفعه، ،.. ويترل لدرجة اقل من الأنعام لأنه خرج من فطرته التي فُطر عليها!

- ما ضرّ شمس الضحى وهي (منيرةٌ)

أن لا يرى ضوئها من ليس ذا بصير-

و.. هكذا، قال ﷺ عن (عبد الله بن جدعان) – حين ذكر كرمه.. وأثنى عليه[1] – فسألته عائشة رضي الله عنها : هل هو بالجنة – قال: { لا ، لأنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين}.

.. ولو تمعّنا بهذا الدعاء العظيم لوجدناه يحوي أربع معاني ، الأول: الاعتراف بالربوبية، الثاني: طلب المغفرة ممن يقدر عليها سبحانه، الثالث: الإقرار بالخطيئة، والرابع: الإيمان باليوم الآخر والحساب والعقاب.. والله أعلم.

ثم..، وهذان الفريقان المؤمنين والكفار: كما في قوله تعالى ﴿.. فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الشورى/٧] وهي سنة الله ،في الذين خلوا من سائر العصور، ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب/٦٢].

- ما هي إلا جنة ونار افلح من كان له اعتبار –

- وقيل أيضاً:

الدار جنات عدنٍ إن عملت بما يُرضي الإله،..وإن خالفت فالنار-

وأما المؤمنين ، فإن بهم منافع أجلّها (العبادة) كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾[البينة/٥].

---

(١) .. وكذا أثنى على (حاتم الطائي)، وحمد كرمه.

وقد يختصر.. ذلك قول (الناظم) :

إذا ما مات ذو علم وتقوى ... فقد ثلمت من الإسلام ثلمة
وموت العابد القوّام هدمُ ... فكم شهدت له بالليل ظلمة
وموت الحاكم العدل المولّى ... فإن بقاءه خصب ونعمة
وموت الفارس الضرغام هزم ... فكم شهدت له بالنصر عزمة
وموت فتى كثير الجود مَحقُ ... فإن بقاءه خصب ونعمة
فحسبك (خمسة) يُبكى عليهم ... ..وباقي الناس تخفيف ورحمة
وباقي الناس همج رعاع[1] ... وفي إيجادهم لِلهِ حكمة

تذكّر دائماً

- إن نزع الروح أمر عظيم ومهول، وأشدّ من ضرب السيف، لكن يهوّنه الله على المؤمن.
- ما يحصل بالمحتضر لا نراه، رأفة من الله ورحمة بنا، حتى لا تنغص حياتنا.
- من يزرع الطاعات.. يحصد عند وفاته الخيرات والكرامات، ومن يزرع السيئات.. يحصد عند وفاته الألم والحسرات![2]، أي:الجزاء من جنس العمل.
- من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه.
- .. ليس للأرواح بعد الموت مستقرٌّ واحد، بل تتفاوت بحسب الأعمال، وكذا مقام أصحابها يوم القيامة.

---

(١) أي .. من غير المؤمنين، كما تقدم ص١٢٦

(٢) وأرهف سمعك: (أيها الشاب صل قبل أن يصلي عليك) فما أجملها من موعظة.

وغداً توفّى النفوس ما عملت ... ويحصد الزارعون ما زرعوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم ... وإن أساؤوا فبئس ما صنعوا

انتبه لـ/ نهايتك!

يقول النبي ﷺ: {إن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها}[1].

وكان ﷺ كثيراً ما يدعو بـ: {يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك}[2]، وحديث : { إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلّبها حيث يشاء}، قال تعالى ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم/٢٧].

وفي إحدى غزوات النبي ﷺ لمع فارس فذ[3] يقاتل المشركين قتالاً شديداً، ويفتك بهم فتكاً عظيماً، ولا يترك لهم شاذةً ولا فاذة إلا أتبعها وضربها بسيفه، فلما رأى الصحابة شجاعته وقوته.. قالوا: ما أبلى اليوم بلاء حسناً مثلا فلان، فقال رسول الله ﷺ: {أما إنه من أهل النار} فيستغرب الصحابة بذلك، ويدهشهم هذا القول من النبي ﷺ الذي ﴿ مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ وهنا يقوم رجل من الصحابة ويقول: أنا صاحبه فيتبعه بكل تصرفاته، ولا يدعه يفلت عن عينيه طرفة، وبعد فترة وجيزة يتأكد ذلك الرجل الصحابي مما قاله رسول الله ﷺ، وتتكشف له حقيقة الأمر بوضوح جلي، وظاهره لا يشوبه شك أو ظن، وإذا بهذا الفارس المغوار يجرح

---

(١) أخرجه البخاري ١١٧٤/٣، ومسلم ٢٠٣٦/٤ .

(٢) أخرجه الترمذي ٥٣٨/٥ .

(٣) الفذ: الذي ليس له مثيل.

جرحاً شديداً، ولكنه لم يحتمل آلام وأوجاع هذا الجرح، فما كان منه.. إلا أن أخـــذ سيفه وأسند قبضته إلى الأرض ووضع نصله في صدره وقتل نفسه، فغدا بهذا منتحراً خاتماً لنفسه بأسوأ خاتمة، واستوجب بذلك النار.

.. وبكى (سفيان الثوري) ليلة إلى الصباح، فلما أصبح قيل له : أكلَّ هذا خوفاً من الذنوب؟ فأخذ تبنة من الأرض وقال: (الذنوب أهون من هذه، وإنما أبكي خوفاً من سوء الخاتمة).

وهـــذا من أعظم الفقه/ أن يخاف الرجل أن تخدعه ذنوبه عند الموت فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنى.

وهاك وآقعة أخرى تحدثنا عن سوء الخاتمة..

وذلك أن النبي ﷺ لما اشتد على المسلمين الأمر في مكة المكرمة واخذ المشركون في تعذيبهم في بداية الدعوة لهذا الدين الحنيف.. أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يهاجروا إلى الحبشة، وكان بها ملكٌ عادل[1] لا يُظلم عنده أحد، وكـــان مـــن بين المهاجرين رجل من الصحابة يقال له عبيد الله بن جحش، ولكن هذا الرجل مال إلى أهل الحبشة وانخرط بهم حتى وصل به المقام إلى أن ترك دينه الذي فرَّ من أجله من مكة، واتبع دينهم وتنصر، ومات على الكفر والعياذ بالله فنال بذلك سوء الخاتمة وحظي بالعقوبة من الله سبحانه وتعالى.

---

(١) هنا تنبيه يجب إيراده:

أن سبب الهجرة (إاختياريا) إلى ذلك المكان: لأن بها ملك عادل.

والعـــدل قامـــت علـــيه السموات والأرض ولن يجد الإنسان مستقر ومقام بدون عدل- ويكفي قول رسول (كسرى) المشهور .. لعمر : عدلت فأمنت فنمت-

..وإن أكثر ما غلب اليوم على حال الدنيا -من حروب وضروب- هو بسبب الظلم والجور، وقد حرّم المولى على نفسه الظلم، وجعله بيننا محرماً..، ويفي لنا، قول ابن تيمية- رحمه الله – بـــ:

(إن الله يقيم الدولة الكافرة العادلة، ولا يقيم الدولة المسلمة الظالمة).

تـــذكّـــر دائـــمـــاً

أن.. هـــناك نماذج يُخاف على الإنسان من مثلها، بـــ أن تغتاله سوء الخاتمة- لا قدر الله – (اللهم احفظنا).

obeikandl.com

obeikandl.com

وبعد نظرٌ.. و تأمّلٍ:

.. فيما سبق من الآيات والأحاديث، وسرد بعض العِبر والقصص/ إن الإنسان على خطرٍ عظيم وخوف شديد من سوء الخاتمة، وأنه ربما يعمل العبد الطاعات طوال عمره ثم يختم له بخاتمة السوء، فيلقى الله وهو عليه غضبان، لأن الأعمال بخواتيمها[1]، أبسط مثل –في هذا-: أن الإنسان لو صام طول نهاره وتحمل مشقات الصيام وصبر على الجوع العطش، ثم إنه قبل المغرب – ولو بلحظة - أفطر، هل يكون صائماً؟ وهل ينال ثواب الصائمين؟!

ولكن.. لا تخف أخي المؤمن وكن مطمئناً من أن الخاتمة ستكون لك على خير، فالكريم يدلي إليك.. بـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[التوبة/١٢٠].

فـ.. الله يضمن لك الميتة التي تأمّل ، والحال التي تريدها، بالعمل الذي سلكت.

- رحم الله مصرعك بـرّد الله مضجعك-

---

(١) .. وقد تقدم قول عمر رضي الله عنه (لو نادى منادي من السماء كلكم في الجنة إلا واحد..، لخفت أن يكون أنا!!)

.. فـ ﴿فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلاَّ ٱلْقَوْمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف/٩٩] و.. هكذا قال الإمام أحمد (الراحة.. عند أول قدم تدخل الجنة). وقد قال أهل العلم: إنه لا يُقتدى إلا بمن مات على ثبات ، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة!

وأنظر لـ (تهديد.. ووعيد) إبليس ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ* ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٧] أي من جميع الجهات والجوانب ومن كل طريق [الأعراف:١٧] –تفسير السعدي ص٢٨٤- ،قال د. أحمد نوفل- (أحسن القصص)-: (إذاً كيف هي الحرب مع الشيطان .. مهولة!).

ولكن! إن أنت صنعتها بخير، كما في هذا الإجمال من قوله ﷺ:

{اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحُها، وخالق الناس بخلق حسن}[1].

ولأن (العبرة) بالنهاية، والأعمال بالخواتيم، وذلك بـ(الثبات[2]) حتى الممات، والثبات فعل المسلم، والتثبيت فعل الرب..كما قال تعالى ﴿وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ [الإسراء/٧٤].

فإنه له أسباب، ألمح إلى أهمها الداعية (فهد التويجري) وهي –باختصار–:

١– العلم– وهو معرفة الله ودينه، ونبيه ﷺ.

٢– تدرب القرآن – وقراءته، والمداومة على ذلك–

٣– الدعاء بالثبات– قال ﷺ:{اللهم إني أسألك الثبات}.

٤– الصلاة– ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَاةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه/١٣٢].

٥– الصبر– ﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ [البقرة/٢٥٠].

٦– اتخـــاذ القدوة الصالحة– ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام/٩٠].

٧– الرفقة الصالحة – وقد ألمحت إليها ص١٠٢.

٨– الرجوع إلى الأخبار الثابتة – ﴿ وَكُـــلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود/١٢٠].

٩– عدم المجاهرة بالمخالفات– قال ﷺ { كل أمتي معافى إلا المجاهرين}.

---

(١) رواه النسائي والحاكم والبيهقي.

(٢) وانظر رسالة: (وسائل الثبات على دين الله) للشيخ: محمد المنجد.

١٠- الإعـــراض عـــن كثير من الأخبار والإشاعات ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُـــواْ عَـــنْهُ وَقَـــالُواْ لَـــنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي ٱلْجَاهِلِينَ ﴾[القصص/٥٥]-أ.هـــ.

.. بعـــد كل هذا ليعلم أن (الوقاية خيراً من العلاج) وذاك بتحصين السمع والبصر عن كل محرّم.

ولكن كيف تصنع خاتمة نفسك ؟

إن الله ســـبحانه وتعـــالى أكـــرم من أن يُضيّع عبداً تعلق قلبه بحبه، وعملت جوارحه بطاعته.. ثم بعد ذلك يختم بخاتمة السوء، فالله الكريم العادل لا يظـــلم أحداً، ولا يضيع عمل أحد: ﴿ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّن ذَكَـــرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ﴾ [آل عمران/١٩٥]. فهو - سبحانه- لا تفيده طاعة المطيع(١)، ولا يضره معصية العاصي، فهو الكريم مع المطيع، والغني عن العاصي.

ولكـــن كيف يختم الله سبحانه وتعالى لرجل بخاتمة السوء ونحن نراه منشغلاً بالطاعات ومجتنباً لمحارم الله تعالى ؟

هـــذا/ مرشـــد الأنام محمد عليه الصلاة والسلام يجيبنا عن ذلك في حديـــث ذلـــك الفارس الشجاع — كما تقدم ص١٣١ - الذي قتل نفسه بقولـــــه: {إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل الـــنار، وإن الـــرجل لـــيعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة}(٢).

---

(١) كما في الحديث القدسي: { لو أن أولكم وأخركم وجنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً.. الخ }.

(٢) أخرجه البخاري ١٠٦١/٣، ومسلم ١٠٦/١ .

وجـــاء في الحديـــث الذي رواه مسلم: {فمن أحب أن يزحزح عن الـــنار، ويدخـــل الجنة فلتأته منيته، وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه}.

ويتضح لنا من إجابة النبي ﷺ عن سؤالنا: أن السبب في سوء الخاتمة للعـــبد إنمـــا هـــو (الـــنفاق الأصغر) .. أو ما يُسمّى (بذنوب الخلوات)، -قال (الحسين بن مطير) رحمه الله:

لا تقرب الأمر الحرام فإنه حلاوة تفنى، ويبقى مريرها -

..وقال إسماعيل صبري – رحمه الله -:

يا عالم الأسرار.. حسبي محنة علمي بأنك : عالم الأسرار

كمـــا قـــال تعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾[1] [الإســـراء/ ١٧] وقـــال ســـبحانه ﴿ وَٱعْلَمُـــوٓاْ أَنَّ ٱللَّـــهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾ [البقرة/ ٢٣٥]

وينبّه (أبو العتاهيه).. إلى نعمة لا يكاد يفطن لها إلا من﴿ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ..﴾ بآلاء المنعم:

أحســـــــن الله بـــــــنا أن الخطايـــــا لا تفـــــوح[2]

ولما سمع الإمام أحمد رحمه الله قول (الحسن بن عمرو) :

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت، ولكن قل عليّ رقيب

---

(١) وقد تقدم قول الشاعر : **تبارك من توفّاكم بليل (ويعلم ما جرحتم بالنهار)**

(٢) وإلا لما وسعتنا رائحة أنفسنا – من المعاصي، والذنوب-، فكيف غيرنا..، إلا ما شاء ربنا.

أغلق عليه الباب وظلّ يبكي[1] حتى سُمع بكاؤه من خارج الدار ، وهو يردد هذا البيت – وما هذا إلا من صدق معنى البيت وقوة تأثره به–

وقال الأندلسي في هذا المعنى :

وإذا خلـــوت بريبةٍ وبظلمة والنفس داعية إلى الطغيان

فاستحي من نظر الإله وقل لها: إن الذي خلق الظلام يراني

واختصـــرت معـــنى مـــا تقدم، بائعة اللبن جدَّةُ عمر بن عبد العزيز – رحمهـــم الله – بقولها المشهور : (إن كان "عمر بن الخطاب" لا يرانا، .. فإن رب عمر يرانا)[2].

فاللهم ارزقنا خشيتك في الغيب والشهادة.. واجعلنا ممن قلت فيهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك/ ١٢].

..فـــإذا رأيت العبد متلبساً بطاعة الله عز وجل ظاهراً بمظاهر النسك والعـــبادة والتبـــتل والخشوع والخضوع، ثم إنه بعد ذلك إذا اختلا[3] بنفسه ارتكـــب المعاصي والموبقات.. فأنذره بسوء الخاتمة ما لم يَتب إلى الله تعالى، ويقلع عن ذلك الفعل الشنيع.

وقال بعض أهل العلم:

(مـــن أســـباب سوء الخاتمة: الغفلة عن ذكر الله، وتكاثر الذنوب، وأكل الحرام).

---

(١) .. وصدق الله العظيم ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ ﴾.. –: أنظر ما تقدم هامش (٦) ص٤٠–

(٢) ومثل هذا، .. هذا:

فبعد معركة (نهاوند) حين ذُكر للخليفة (عمر) استشهاد بعض المجاهدين وقالوا: وأناس لا نعرفهم ! فقال عمر رضي الله عنه: (ولكن الله يعرفهم).

(٣) .. وهذا لا يناقض هذا التوجيه (إذا بُليتم فاستتروا).

لكن من أُبتلي ـــ عياذا بالله ـــ بشيء من ذلك فعليه بكثرة الطاعات ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّئَاتِ ﴾ .. و{اتبع السيئة الحسنة تمحها}[1]- وكذا المداومة على الاستغفار.. والإنابة دوما إلى ربه وسؤاله المعافاة.

فالاستغفار.. هو أكبر شافع لنا أمام ربنا، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال/٣٣] فلئن حال عن تلكم الصفوة (الصحابة) العذاب وجوده ﷺ بينهم، فقد بقي -.. مع وجود المصلحين[2]- لنا (الاستغفار) حائلٌ .. عن عذاب ربنا بإذنه تعالى، هذا مع المحافظة على (الستر) قدر المستطاع، وعدم مقارعة الخلق بهذا، لينال – بإذن الله- من ابتلى بشيء من هذه (الذنوب) البشرى التي جاءت في الحديث: { كل أُمّتي معافى إلا المجاهرين }، يُشيّعه قوله ﷺ: {والله لو لم تُذنبوا لذهب الله بكم وأتى بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم } -الحديث، ونظم- معللاً- أبو نواس بـ :

---

(٣) رواه النسائي والحاكم والبيهقي.

٢) إذا هناك موانع من العذاب أولها: وجوده صلى الله عليه وسلم، ثانياً: الاستغفار، ثالثاً: العبادة والشكر.. ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾، ومَن أسماها بـ (الدعاء) في قوله تعالى ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَآؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧] ، رابعاً: وجود المصلحين – كما قال تعالى ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾- والله أعلم. لكن علينا التنبيه أن هذا- أي الإصلاح – ليس دائماً بحائل بخاصة إذا ما كثر (الخبث) كما قال ﷺ، حين سألته عائشة رضي الله عنها: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال (نعم، إذا كثر الخبث)!.. فعليك – أخي في الله – أن تهيىء السبل بإحالة العذاب، وذاك.. بإعانة المصلحين (تكون في عدادهم)، وذاك بإصلاح نفسك أولاً، ثم تقف إلى جانبهم..، وصدق الحق ﴿ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوۤءِ ﴾ – وإلا كما قال (الجواهري):

ستبقي طويلاً هذه (الأزمات) إذا لم تقصر عمرها الصدمات
إذا لم ينلها مصلحون بواسل جرئيون فيما يدعون.. كُفات-

تُعيّرني بالذنوب، وأيُّ حرٍ من الفتيان ليس له ذنوب

وقال غيره:

من ذا الذي ما ساء قط ومن له الحسنى فقط!

من.. معنى قوله ﷺ: { كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون}، وأخذاً بالحديث { داؤكم الذنوب ، ودواؤكم الاستغفار }

فإن من صفات ربنا: (التواب) و(الغفور) والغفار: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه/ ٨٢] ، وأيضاً لأن هذا – أي: الذنوب-.. سمط (الخلق) الذي (خُلق الإنسان من ضعف).

فـ.. ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ﴾[آل عمران من آية ١٤٧] والقائل في محكم التنزيل لنبيه: ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد/١٩] وقال ﷺ:{ يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب إلى الله واستغفره في اليوم مائة مرة} – الحديث-.

- فالبدار .. البدار :

يا نفس توبي، فإن الموت قد حانا

واعصِ الهوى، فالهوى ما زال فتّانا-

كما قال تعالى ﴿ {قُلْ مَا يَعْبَأُ [1]بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَآؤُكُمْ ﴾ [الفرقان/ ٧٧]، وقال سبحانه: ﴿فَلَوْلآ إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَـٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام/ ٤٣].

وكذا (أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو، وأتوب إليه.. ثلاثاً) كما ورد في الحديث.

وكان ثابت البناني يقول : (الحمد لله وأستغفر الله).. فسُئل : لم خصصهما؟ فقال : (لأني بين نعمة وذنب، فأحمد الله على النعمة وأستغفره من الذنوب) .

– ألم تر أن الله يكفي عباده فحسب عباد الله.. بالله كافياً–

جاء– في (الزهر الفائح) ص٩١–:

إن محمد بن المنكدر بكى بكاءً شديداً عند موته، فقيل له: ما يبكيك؟ فرفع طرفه إلى السماء وقال: (اللهم إنك أمرتني ونهيتني فعصيت، فإن غفرت فقد مننت، وإن عاقبت فما ظلمت).

ثم اعلم أخي/ أنك مقصّرٌ أبداً في حق ربك، وما يجبر ذلك – مع الاستغفار – إلا الشكر، والشكر خلّه جليلة، أثنى بها الله على ثلّة من عباده بـ أن: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[سبأ/١٣] وقال لهم: ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ [لقمان/١٢].

وقد صح عنه ﷺ هذا الدعاء :

---

١) يعبأ أي : يهتم، أو يكون لك مقام لديه.

{ اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد}.

وإلا فـ إن نعم الله علينا لا تحصى، ومن ذا الذي يحصي نعم (المنعم) القائل: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّه لاَ تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم/ ٣٤] فلك الحمد يا رب: (حمداً كثيراً عظيماً طيباً مباركاً فيه) و (لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضى) .

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : { ما أنعم الله على عبد نعمة.. فعلم أنها من عند الله إلا كتب الله له شكرها، وما علم الله من عبد ندمه على ذنب إلا غفر الله له قبل أن يستغفره، وإن الرجل ليشتري الثوب بالدينار فيلبسه فيحمد الله فما يبلغ ركبتيه حتى يغفر له} رواه الحاكم.

وقد ثبت في صحيح مسلم عنه ﷺ أنه قال : { إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها}.

-إذا كان شكري نعمة الله.. نعمةً عليَّ، له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله وإن طالت الأيام واتصل العمر-

لآفته: أخي وأختاه، خالف موسى صاحبه (الخضر) – عليهما السلام- ثلاث مرات فقال له: ﴿ ..هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾، وأنتما تُخالفان الله في اليوم مرات ومرات[1]، أما تخافان أن يقول لأحدكما :هذا فراقٌ بيني وبينك!!.

(١) قال التابعي أبو حازم –رحمه الله- ناصحاً بإيجاز: (إياك أن يفقدك ربك حيث أمرك، أو يجدك حيث نهاك).

- فلعلها .. إن كانت، تكون :

حماقـــــــة جـــــــزمًا .. ولـــن تعـــود ثانـــية

فحسب!، بإذن .. وفضل ربي-

فـــ .. عندما تقفا وقد أسبغتما الوضوء واستقبلتما القبلة، وكبَّرتما لله إعظاماً وإجلالاً وبدأتما تقرآن أمَّ الكتاب (الفاتحة)-فرض كل صلاة- وعند قولـــه تعـــالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ* صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُـــوبِ عَلَيْهِم وَلاَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ قفا ملياً عند هذه الآيات وكرراها مرات ومرات بقلب خاشع ضارع، فلربما تلقفتها الملائكة ورفعتها للرحمن، عندها.. بإذن الله لن يخيّبكما ربكما أبداً.

فـــ ..يا:

شباب الجـــيل للإسلام عـــودوا

فأنـــتـــم روحه وبـــكـــم يسود

وأنـــتـــــم سرّ نهضـــتـــه قديـــماً

وأنـــــتم فجره الزاهي الجديـــــد

وخُذا هذا (الملحظ): عن أحد التابعين وهو يقول:

(عجباً لابن آدم إن أراد أن يدخل على مولاه بغير إذن وأن يكلمه بلا تـــرجمان دخل وكلَّمه.. قيل: وكيف ذلك؟ قال: يسبغ الوضوء، ويقف في محرابه ويبدأ صلاته إذاً هو دخل على مولاه بغير إذن ويكلمه بلا ترجمان!!

وقال محمد القرني.. عن (دار الغرور):

إلى باب الكريم شددت رحلي ... كما يهفو لموطنه الغريب

ويممت اذي من يرتجيه ... بخالصة المقاصد لا يخيب

وأعلم أن للدنيا ورواداً ... وأن المكث فيها لا يطيب

وأعلم أن من علقت مُناه ... بها.. فمناطُه -أبداً- كذوب

تغرّ المرء زهرتها وتهفو ... لزينتها المشاعر والقلوب

وينسى العبد أن لها أُفولاً ... ومن ألقته يوماً لا يؤوب

..هي الدنيا محبوها كثير ... ويحذرها من الناس (اللبيب)

وأمُّ الشؤم إذا أكلت بنيها ... وفيها ضل شبان وشيب

تزيَّنُ ثم تنكث وهي جذلى ... كما نكثت بموعدها اللعوب

خبرت سرورها فرأيت قفراً ... وآصالاً [1] يُنازعها الغروب

رأيت العاشقين لها تفانوا ... وكلٌّ مُتيم فيها غريب

إذا نافست في الدنيا قريباً ... فأول من يعاديك القريب

وإن صافيت للدنيا حبيباً ... فأحرى من يجافيك الحبيب

وأدومُ خُلَّة ما كان منها ... لذات اللهُ ليس بها ندوب [2]

-.. والبيت الأخير.. من قوله تعالى ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]-

---

(١) أي : الأصيل - .. ما يسبق الغروب-

(٢) أي : عيوب أو شوائب من عوالق الدنيا- وأنظر ما تقدم (ص١٠٠)-.

وفي الحديث { إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي، اليوم أظلهم في ظلي، يوم لا ظل إلا ظلي }[1].

وكـــذا.. { ألا أخبركم برجالكم في الجنة؟ قالوا: بلى يا رسول الله فقال: النبي في الجنة، والصديق في الجنة، والرجل يزور أخاه في ناحية المصر، لا يزوره إلا لله، في الجنة[2] }.

اللهم اختم لنا بالحسنى وعد علينا يا كريم بعوائدك .. الحسنى، أمين.

تـــذكّـــر دائـــمـــاً

استبشـــر ولا تخف يا أخي من سوء الخاتمة، إذا عملت بما يرضي الإله في حياتك، فالله أكرم من أن تعبده وترضيه طوال حياتك.. ثم يضيّعك عند وفاتك.

وإذا كان سبحانه يستحي أن يُعذّب ذو الشيبة -كما ورد عن رسول الله ﷺ-، فمـــن أولى أن لا يُعذّب من اهتدى وسار على تعاليمه، وقد قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٦).

(٢) حسّنه (الطبراني).